عوامل التربية

للأستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس

بدار العلوم وكلية أصول الدين

من المعلوم لكل إنسان أن النبات يتولد منه نبات مثله ، يحيا حياة مثل حياته ، ويسلك في النمو طريقاً مثل طريقه ، ويتأثر بما يتأثر به من العوامل ثم يدركه الضعف مثله ثم يفنى بعد انقضاء أجله لأسباب تشبه تلك الأسباب التي تقضي على أصله وتؤدي إلى فنائه .

ونرى مثل ذلك يحصل للحيوان ، فكل حيوان ينشأ عنه آخر مماثل لأصله في الصفات الجثمانية ، مشابه له في كثير من الصفات الخلقية ، ولا يشذ عن هذه القاعدة الانسان . فأنا نلاحظ أن ابن الطويل ينشأ طويلا ، وأن ابن الأبله ينشأ في الغالب أبله ، بل إننا نلاحظ أن لكل أمة من الأمم صفات تميزها عن غيرها ، ولكل جنس من الأجناس البشرية مميزات خاصة به ، فأولاد الصينيين يشبهون آباءهم في لون الشعر والبشرة وسحنة الوجه وشكل العين والأنف وكذلك ينشأ أبناء الهنود نشأة آبائهم ويشبهونهم في الأوصاف الخلقية وفي كثير من الميول الخلقية وكذلك يقال في أولاد العرب والمصريين والانجليز والفرنسويين .

وللجنس الآري على العموم مميزات جثمانية وأخرى نفسية ، وللجنس المسمى بالسامي خواص يعرف بها يرجع بعضها إلى ملامح وجوههم وألوان بشرتهم وشعورهم ، والبعض الآخر يرجع إلى نزعاتهم النفسية ومذاهبهم الاجتماعية ، وهذه الصفات التي تميز أفراد أمة من أفراد أمة أخرى ويعرف بها الجنس الذي ينتمي اليه الفرد ، وهذا دليل واضح على أن هذه الصفات تنتقل من الآباء للابناء .

وإن ناموس النشوء والرقي الظاهر الأثر في جميع الأجناس والأنواع من الكائنات الحية يدعونا إلى الاعتقاد بأن بعض الصفات الرئيسية التي ترجع إلى وظائف الأعضاء والتي يكتسبها أفراد نوع من الأنواع بالجهاد في الحياة بحكم قانوني « تنازع البقاء » و « بقاء الأصلح » تنتقل من الأصول إلى الفروع ، إذ لولا ذلك لما حصل الترقي ، ولكان من الضروري أن يبدأ الفرد حياته بسيطاً ساذجاً محدوداً في أعضائه وفي وظائفها ، ولظل الانسان مثل غيره من الحيوانات محدود القوى قليل المواهب العقلية ، لا يمتاز عن أسلافه قليلا ولا كثيراً .

فمما لا نزاع فيه إذن أن الفرع إذا ترك وشأنه، فإنه ينشأ نشأة أصله لا يمنعه من ذلك إلا ظروف خاصة ستتبين لك فيما بعد . وانتقال صفات خاصة جثمانية كانت أو عقلية أو خلقية من الأصل إلى الفرع خاضع لقوانين تسمى قوانين « الوراثة » وهى العامل الأول من عوامل تكوين الانسان .

ومن الممكن تعريف الوراثة بأنها ميل طبيعى فى الفرع لمشابهة أصله فى تكوينه الجثمانى وفي وظائف أعضائه .

وهذه المشابهة على نوعين : (أولا) مشابهة الفرع لأصله المباشر (ثانياً) مشابهة الفرع لأصل من أصوله السابقة، ويدخل فى المشابهة سلوك الفرع مسلك أصله في النشأة والنمو وأسباب الضعف والانقراض ، والغرض الأساسى من هذه المشابهة هو الاحتفاظ بالنوع وبقاؤه بقاء صالحاً ، إذ أن بقاء الفرع لا يتحقق إلا ببقاء أفراده من جهة وبمشابهة الفروع لأصولها من جهة أخرى ، فلو لم تبق الأفراد لانقرض النوع ، ولو لم تشابه الفروع أصولها لنشأ نوع آخر .

ومن حيث إن أفراد كل نوع ستحيا حياة أصولها بوجه عام، وستكون مضطرة لمقاومة الظروف التى خضعت لها أصولها من قبلها كان من الضرورى للفروع أن يكون لديها من الصفات ما تستعين به على مقاومة تلك الظروف ، أى لابد لها من أن تكون مزودة بالصفات والخلال التى اتصفت بها أصولها .

هذا اذا فرضنا أن الظروف والأوساط والبيئات اللاحقة هى هى الظروف والبيئات السابقة نفسها وعلى الأقل مشابهة لها، أما اذا حدثت طوارئ جديدة أو حصل تغير خطير فى البيئات والأوساط عفواً او أريد تغييرها قصداً لتنشئة الأفراد تنشئة جديدة والسلوك بهم مسلكا آخر لغرض ما فإنه يصير من الضرورى فى مثل هذه الأحوال أن يحصل فى صفات الأفراد انقلاب تابع للانقلاب الذى يحدث فى البيئات التي يعيشون فيها .

وهذا الانقلاب خاضع لقوانين خاصة هى قوانين البيئة التى هى العامل الثانى من عوامل تكوين الانسان. والانقلاب الخاضع لقوانين البيئة يحصل بطريقين: اولها طريق الاستعداد الفطرى وثانيهما طريق الاكتساب الارادى ، ونقصد بالاستعداد الفطرى استعداد الكائن الحى للتكيف من تلقاء نفسه تكيفا يجعله صالحا للاقامة فى بيئته الخاصة قادرا على مقاومة عوارضها وطوارئها، وهذا النوع يشاهد فى الكائنات العضوية الدنيا والعليا معا ، غير أن حظ الحيوانات العليا من هذا الاستعداد وافر، وحظ الانسان منها أوفر وأكمل.

وربما كان من مميزات الانسان أنه أقدر الحيوانات على إعداد نفسه لبيئته بسرعة، فأننا نرى

أن الانتقال من بيئة الى أخرى قد يؤدى الي تغير بسيط فى لون البشرة ، والى انقلاب تدريجى في الصفات الأخرى الجثمانية وفى الاخلاق والعادات والعقائد، وقد يجبر الانسان على الاحتراف بحرفة تناسب البيئة الجديدة .

كما أننا نلاحظ أن تغير البيئات الاجتماعية كالتصاهر والانتقال من مجتمع الى آخر أرقى أو أقل منه منزلة قد يحدث اختلافا بينا فى الصفات التي أخذها الفرد عن أسلافه ، وإن كان هذا التغير يختلف سرعة وبطء باختلاف الأفراد فى المرونة والجمود لدرجة أن أثره لا يظهر إلا بعد حين .

وإن التاريخ كفيل باعطائنا أمثلة كثيرة تبين صحة هذه الحقيقة، انظر مثلا الى اختلاط العرب بالعجم تجد انه قد أدى الى انقلابات سياسية واجتماعية وأدبية خطيرة في الحياة العربية وأحدث تطورات كبيرة فى المجتمع الفارسى لاسيما من حيث الدين واللغة والسياسة ـ وهاك مثلا آخر : التقاء الشرق بالغرب وجها لوجه مرتين: مرة فى معاهد العلم في الاندلس، وأخرى فى ساحات القتال أثناء الحروب الصليبية ، ذلك الالتقاء الذى نشأ عنه انقلاب عظيم في أوربة ربما يكون من أظهر نتائجه الأحياء العلمى والاصلاح الدينى اللذان حدثا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولا أذهب بك بعيدا ، فأنت ترى فى عصرنا الحاضر هذه الحقيقة تعمل عملها بوضوح وجلاء وذلك من جهتين ، فكثير من ابناء وطننا يزحفون الى اوربة طلبا للعلم او الراحة، ثم يرجعون مزودين بالعلوم والعادات والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التى ترى لها من الآثار ما لا يمكن إنكاره.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نرى تيار الحضارة الأوربية يندفع الينا يحمله هؤلاء الأجانب الذين يتسللون علينا من كل جانب ، ويجلبون لنا من الاخلاق والعادات والتقاليد الحسنة والقبيحة والنافع والضار، ويعزز ذلك المجلات والصحف التي يحملها الينا البريد من الممالك المختلفة زاخرة بالعلوم وانواع الفنون والآداب ، فنجد أنفسنا أمام ذلك التيار الجارف مندفعين بعامل التقليد نحو التشبه بهؤلاء الأجانب والتخلق بأخلاقهم والتمسك بالكثير من عقائدهم بعقل وبدون عقل حتى أصبحنا فى حاجة الى ملاحظة قوية لتميز الاجنبي من المصرى.

ولسنا الآن بصدد البرهنة على أن هذا النوع من نوعى الانتقال والتطور فطرى وضروري في آن واحد ، فقد ترغم الظروف بعض الامم على احداث انقلابات علمية واجتماعية يكون لها آثار حسنة في تغيير ثقافتها وتحويل تيارحياتها بحيث تكون أكثر استعدادا للمقاومة والمنافسة وأقدر على احتلال المركز اللائق بها بين الامم .

أما الانقلاب بطريق الاكتساب الأرادى فيراد به الانقلاب الذى تفرضه الارادة على الفرد إن كانت هناك إرادة يقودها الفكر الصحيح .

وهذا مشاهد فى الانسان الذى يهذب نفسه بنفسه ويدبر شؤونه على حسب ما تسمح له ظروفه ويسلك الطريق الموصلة الى غايته ويبذل جهده في أن يصير عضواً عاملا فى المجتمع.

وإنما يسعى الانسان هذا السعى ويسلك ذلك المسلك، لأنه يميل بفطرته لي التقدم، ويجنح بطبيعته نحو النهوض ويعزز ذلك الميل الفطري معيشته فى مجتمع يرغمه علي التنافس كي يحيا حياة طيبة شريفة، غير أن وجود ذلك الميل الفطرى قد لا يكفى لسعى الانسان نحو التقدم، فالطفل الصغير تنقصه الارادة القوية وبعض البالغين تعوزهم التجارب ولا يعرفون السبل التي يجب سلوكها معرفة تامة فمن العبث في مثل هذه الأحوال أن يترك الانسان فريسة تتعقبه الحوادث، ولقمة يلتهمها الدهر، ولعبة في أيدى البيئة تتصرف فيه كيف تشاء، بل من الواجب علي أفراد المجتمع العالمين المجربين أن يكونوا هداة لأمثال هؤلاء الضالين، وأدلاء لأبناء وطنهم التائهين، وهذه الهداية لا تتحقق إلا بالتربية.

ومن ذلك نرى أن الانقلاب الارادى له نوع ثان، هو الانقلاب الذى تفرضه إرادة المجتمع باتخاذ وسيلة خاصة تسمى التربية.

فالتربية إذن هى وسيلة أو أداة، مدبرة يقوم بأدارتها الخبراء من أفراد المجتمع، ويكون الغرض منها إعداد النشء للحياة في بيئتهم الخاصة حياة كاملة.

وإن هذه الوسيلة لن تفلح ولن تأتي أكلها إلا إذا كان للارادة الفردية أثر فعال فيها أى إرادة الفرد لابد أن تساعد إرادة المجتمع مساعدة جدية فعلية في سبيل الوصول الى الغرض المقصود.

وهذه الارادة البشرية بنوعيها هي العامل الثالث من عوامل تكوين الانسان.

فمن ذلك نرى أن الحياة فى تقلب مستمر وتقدم مطرد، وإنك لو بحثت عن عوامل هذا التقلب وأسباب ذلك التقدم لوجدتها ترجع إلى ثلاثة أمور هى: الوراثة والبيئة والارادة.

وهذه العوامل الثلاثة فى نزاع دائم وصراع مستمر، فالوراثة قد تتغلب علي الآخرين كما أن البيئة قد تخضع الوراثة والارادة لسلطانها، ولكن الارادة في الانسان هى أقوى الثلاثة وأشدها أثراً فى حياته، اذ بها تمكنه السيطرة على العاملين الآخرين، فيقتدر على تحسين الوراثة، وإخضاع البيئة وإعداد النشء للانتفاع بما حسن من آثارها ومكافحة ما ساء منهما. والي الارادة يرجع الفضل الأول فى معرفة أسرار الطبيعة وفى اتخاذ هذه المعرفة وسيلة لتسخير عناصرها واستخدامها لمصالحه ولولاها لوقف الانسان حيث بدأ، أو علي الأقل قريباً من حيث بدأ حياته علي ظهر البسيطة، ولبقى حيواناً ساذجا لا يمتاز عن غيره من الحيوانات لا قليلا.

ولسنا بمغالين اذا قلنا إن تاريخ الحضارة الانسانية هو في الحقيقة تاريخ صراع مستمر بين الارادة البشرية من جانب ، و بين الوراثة والبيئة من جانب آخر

والآن نتكلم عن كل من هذه العوامل على وجه التفصيل : —

الوراثة

قدمنا لك ، أن الوراثة هى ميل طبيعى في الفرع ، لمشابهة أصله فى تكوينه الجثمانى ، وفى وظائف أعضائه . و يعرفها بعض العلماء تعريفا آخر فيقول إنها مشابهة الفرع لأصله .

والفرق الأساسي بين التعريفين هو أن الاول يجعل الوارثة ميلا طبيعيا ، و يعتبر المشابهة نتيجة ناشئة عن ذلك الميل ، أما التعريف الثانى فأنه يقول لنا إن المشابهة نفسها هى الوراثة .

وعندى أن التعريف الثانى أدق من حيث الوجهة اذ أنك اذا قلت إن فلانا أخذ عن أبيه الذكاء بالوراثة فأنك تريد أنه أخذه عنه بطريق المشابهة لا بطريق الميل للمشابهة إذ أن الميل لا يؤدي دائما الى الفعل . والوراثة تعمل عملها سواء أوجد ميل أم لا .

على أن هذا التعريف الثانى ينقص تقييد المشابهة بقيدين ضروريين : —

ذلك أنه لابد من أن نقول إن هذه المشابهة فطرية أو طبيعية ، لأن مشابهة الفرع لأصله لاتأتى عفوا كما أنها ليس لها شواذ ، فكل كائن عضوى يشبه ، اصوله دائما في كل زمان ومكان .

ولا بد كذلك من تقييد المشابهة بكونها مشابهة في أمور خاصة ، إذ أنه ليست كل مشابهة أمرا وراثيا ، ألا ترى أن الطفل يحاكى أباه أو أمه أو أحد أقاربه ، فى أقوالهم وأفعالهم؟ بل إنه قد يحاكي أحد أقرانه أو أحد الاجانب الذين يختلط بهم كثيرا فى بعض صفاتهم؟ فليس من المعقول أن تسمى هذه المحاكاة وراثية في ذاتها ، ولكنها ترجع الى نظرية عامة وقاعدة أخرى هى قاعدة التقليد .

فالمشابهة الوراثية مشابهة فطرية فى أمور خاصة ، وقد أشار التعريف الاول الى هذا التخصيص ، فقيد المشابهة بكونها فى التكوين الجثماني وفى وظائف الاعضاء .

فأذا أضفنا هذين القيدين إلي التعريف الثانى وقلنا إن الوراثة هي مشابهة الفرع لأصله مشابهة فطرية فى تكوينه الجثمانى وفي وظائف أعضائه كان التعريف حينئذ كاملا .

منزلة الوراثة

١ — فى علم الحياة . والوراثة بالمعنى السابق أمر معترف به في علم البيولوجيا أو علم الحياة بل إن هذا العلم يجعل الوراثة المنزلة الاولي فى تكوين الكائن الحي ، ولا يكاد يعترف بما

للبيئة والارادة من الآثار بدعوى أن آثارهما لافيمة لها بالنسبة لآثار تلك . إذ أن ما تحدثه هاتان من تغيير أو تبديل فى صفات النشء يكون قاصرا على جيل واحد، إذ أن معظم الصفات المكتسبة بالتربية إن لم تكن كلها لاينتقل الى النسل بالوراثة كما سيأتى:—

٢ — في العرف والادب فالعلم الحديث يجعل للوراثة المنزلة الاولي من بين عوامل التربية ، وهذا مطابق لعرف الأمم ، فأنك تجد كتب الأدب فى كل أمة محشوة بالحكايات والامثال التي يؤخذ منها أن الطبع يغلب التطبع كما يقول ابن خلدون ، و إليك حكاية ذكرها صاحب العقد الفريد :

قالوا إن ملكا من ملوك الفرس كان له وزير حازم مجرب ، فكان يصدر عن رأيه و يتعرف اليمن فى مشورته . ثم إنه هلك ذلك الملك وقام بعده ولده معجبا بنفسه مستبداً برأيه ومشورته فقيل له :إن أباك كان لايقطع امراً دونه (اى دون الوزير) فقال كان يغلط فيه ، وسأمتحنه بنفسى ،فأرسل اليه فقال أيهما أغلب على الرجل الادب أو الطبيعة ؟فقال : الوزير :الطبيعة أغلب لأنها أصل والادب فرع وكل فرع يرجع الي اصله ، فدعا الملك بسفرته فلما وضعت أقبلت سنانير بأيديها الشمع فوقفت حول السفرة . فقال للوزير : اعتبر خطأك وضعف مذهبك متي كان ابو هذه السنانير شماعا؟ فسكت عنه الوزير وقال:أمهلنى فى الجواب الي الليلة المقبلة . فقال ذلك لك . فخرج الوزير فدعا بغلام له ، فقال التمس لي فأراً وار بطه فى خيط وجئنى به ، فأتاه به الغلام . فعقده فى سبنيته وطرحه فى كمه ثم راح من الغد الي الملك ، فلما حضرت سفرته أقبلت السنانير بالشمع حتى حفت بها فحل الوزير الفأر من سبنيته ، ثم ألقاه اليها فاستبقت السنانير اليه ورمت بالشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم نارا فقال الوزير : كيف رأيت غلبة الطبع على الادب ورجوع الفرع الى أصله؟ قال صدقت ، ورجع الي ما كان عليه أبوه .

وحكي السعدى الشيرازى الكاتب الفارسي الشهير ، والشاعر الاخلاقى الخطير ، فى كتابه المسمي كلستان (أي روضة الورد) إن طائفة من لصوص العرب كانوا يقيمون على قمة جبل وكانوا يسدون الطرق في وجوه القوافل ، فأخذ الرعية الرعب من مكائدهم وتغلبوا علي جيش سلطان تلك الناحية، لانهم كانوا في مكان منيع وحصن حصين من المستحيل على الجند الوصول اليه .فتشاور أولو الامر فى كيفية الخلاص من هؤلاء ، لأنه إذا استمر حالهم علي هذا المنوال فأنه يصبح من المستحيل مقاومتهم، اذ أن معظم النار من مستصغر الشرر ومن السهل على شخص واحد استئصال الشجرة الحديثة العهد بالغرس ولكن اذا تركت دهرا طويلا ، فأنه لا يمكنه ذلك ، والسيل عند منبعه قد لا يبل الرداء ،ولكن اذا ترك فقد تملأ الدلاء والدلاء .

وأخيرا قر قرار أرباب الدولة على أن يعهدوا الى رجل بتجسس أحوالهم وتحين فرصة ذهابهم لشن الغارة على غيرهم من الناس فيذيع الخبر ويعلم امراء الجند، فيتخيرون فريقا من أشدهم خبرة وعلما بخدع الحرب ومكان الجبال ، فيرسلونهم ليختفوا في شعب الجبل . فذهب الرجل والجنود واختفوا حتى اذا جن الليل ورجع اللصوص من غارتهم وألقوا غنائمهم وأمتعتهم ونزعوا أسلحتهم واضطجعوا واستسلموا لسلطان النوم ـ ذهب الخبر الى الجنود فوثبوا عليهم من مكامنهم وثبة رجل واحد، وشدوا وثاقهم وربطوا أيديهم على ظهورهم ، ثم أحضروهم صباحا بين يدى السلطان فأمر بهم أن يقتلوا جميعاً.

واتفق أن كان من بينهم غلام حديث عهد بالشباب لم يطر شاربه ، ولم ينبت عزاره، فتقدم أحد الوزراء وقبل قوائم التخت بين يدى السلطان، وألقى بوجهه على الارض شافعاً لهذا الغلام الصغير وقال: أيها السلطان الكبير والملك الخطير إن هذا الشاب لم يأكل بعد من روضة الحياة ولم يتمتع بعنفوان الشباب وإنى أرجو من كرم السلطان ومحاسن شيمه أن يمن عليه بدمه. فغضب السلطان لذلك وكاد يتميز من الغيظ ، وقال أيها الوزير إن نور الاخيار لا يهبط على الاشرار وتربية الانذال كوضع بندقة على سطح كرة . فمن الأولى أن نقطع دابر هؤلاء المفسدين ، وأن نقضى على ذريتهم الملاعين ، ومن الأحسن أن نقتلع جذورهم ونهدم بنيانهم من أساسه ، فليس من الحزم أن نخمد اللهيب ونترك الجمرة متوقدة . ولا من العقل أن نقتل الحية ثم نبقى على نسلها . وإن السحب إذا أمطرت ماء الحياة فلن تطعمك من الصفصاف فاكهة شهية ، فلا تضيع وقتك مع من انحطت قيمتهم فأنك لن تجنى الورد من الشوك (ولن تخرج السكر من أعواد الحصير)

فلما سمع الوزير كلام السلطان استحسنه وأمن عليه طوعا وكرها ، ثم قال: إن ما قاله السلطان أدام الله ملكه هو عين الصواب ، ولكن هذا الشاب أخذ عن هؤلاء الاشرار صفاتهم بنشأته بينهم فأصبح واحداً منهم ، وإن خادمكم المطيع يأمل أنه بصحبة الصالحين يتلقى دروس التربية ويأخذ عنهم آدابهم ، ويصبح طبعه مثل طبعهم . لأنه لا يزال طفلا لم تتمكن في نفسه أخلاق البغى وصفات العناد التى اتصف بها هؤلاء الأنكاد ، وفى الحديث « ما من مولود إلا ويولد على فطرة الاسلام . ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

ألا ترى أن امرأة لوط أصبحت شريرة بمصاحبة الأشرار فحكم الله عليها بالعقم وانقطعت ذريتها ولم تكن من أمهات الانبياء؟ وأن كلب أصحاب الكهف بمصاحبته الا ردحا من الزمان واقتفاء أثر الصالحين السنين الطوال صار كرجل من الاخيار؟

فلما انتهى الوزير من هذا الحديث أقبل طائفة من ندماء السلطان وأخافوا أصواتهم الى

صوته في طلب الشفاعة من السلطان فيمن بدم الشاب للوزير ، وقال إني وهبت لك حياته مع أنى لا أرى فى ذلك مصلحة ثم أنشأ قائلا :

هل تدرى ماقاله الملك زال لرسم أمير جنده ؟ لا ينبغى أن تعد عدوك حقيراً أوضعيفا ، إنا نستصغر الماء وهو ينبع من منبعه ، ولكنه اذا عظم حمل الجمال والأحمال فى طريقه .

و بالاختصار حمل الوزير ذلك الغلام الى بيته وتعهده ، وأدر عليه الخير والنعمة ، وعهد بتربيته إلى أستاذ أديب كى يعلمه حسن الخطاب ولطف الجواب وسائر الآداب التى تتطلبها خدمة الملوك ، وما زال به حتى أدبه وأحسن تأديبه وحازت أخلاقه استحسان الجميع ، وقد حدث ذات مرة أن كان يتكلم الوزير بحضرة السلطان عن حسن أخلاق الغلام ، فيقول إن تربية العقلاء قد أثرت فيه وأذهبت عنه طبيعته وضلاله القديم فتبسم السلطان وقال :

غذيت بدارنا ونشأت فينا فمن أنبـاك أن أباك ذيب
اذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

أى أن ابن الذئب يصير ذئباً ولو نشأ بين بنى الانسان .

و بعد مرور عام وآخر على ، ذلك اتصل الولد بطائفة من أو باش ذلك المكان ، واتصلوا به ، وقويت بينهم المودة واشتدت أواصر الأخوة ، ففى يوم من الايام وجد الفرصة سانحة له لارتكاب الجرائم ، فقتل الوزير وولديه وحمل من متاعه ما لايحصي وذهب الى غارة اللصوص وأقام حيث كان يقيم أبوه ، وأصبح من العصاة المجرمين ، فلما بلغ ذلك السلطان قرع سن الندم وعض على أنامله غيظاً ثم قال شعراً معناه :

كيف يصنع حسام قيم من حديد بليد
ما ليس برجل لا يصير رجلا بالتعليم ياحكيم

إن المطر الذى لا يختلف اثنان فى لطافة طبعه ورقة مزاجه

يسقى الشقائق في الحدائق والحشائش فى الارض المجدبة

وإن الارض المالحة لا تخرج السنبل فلا تضيع بذور العمل الصالح فيها سدى
والعمل الصالح مع الاشرار كالعمل السيء مع الاخيار
ووضع الندا فى موضع السيف بالفتى مضر كوضع السيف فى موضع الندا

هذه هى الحكاية ، ومهما يكن فيها من مبالغة أو انتحال ، فأنها ولا بد تعطينا صورة واضحة من عقلية الكاتب ـ الذى يعده مواطنوه والمستشرقون من أوربة ، من أكابر المفكرين ومن أساطين الاخلاقيين فى عصره ، و يبرهن على ذلك ما كتبه في كتابيه (الكلستان) السابق الذكر (والبوستان) وما ذكره في حكاياته .

وليس التاريخ الحديث وآداب العصر بأقل حظا من الأمثلة والحوادث التى تبرهن على تغلب الطبع على التطبع أو الوراثة على التربية، فقد رءى أن أحد علماء أمريكا الذين ينتمون الى جمعيات الرفق بالانسان أنه واسى شخصاً من قبائل الزنوج يسمي فيليبنو بدريتو Felipino Pedrito ورباه تربية حسنة وعلمه لغات عديدة ، ولكن ثقلت عليه وطأة المدنية فلم يلبث أن هجر العالم المتحضر واختفى عن الأعين، ثم عثر عليه عالم الماني وهو مقيم بين قومه وعشيرته يحيا حياتهم و يعيش معيشتهم الوحشية الساذجة .

و يشبه ذلك ماروى عن طائفة ميمى Meme ومن معه من الأقزام الذين أحضرهم بيرى Peary من أقاصى الجهات الشمالية إلى نيويورك فماتوا جميعا بالسل ولم يبق منهم إلا ميمى هذا الذى لم يأبه بالحضارة الامريكية فهجر نيويورك ورحل إلى موطنه الأصلى ناقما على المدنية آسفا على والده الذى مات مع من ماتوا وحنطت جثته وأودعت متحف التاريخ الطبيعى بنيويورك .

وما أصدق قول كارليل « ما المتمدين إلا غشاء رقيق تظل تحته الطبيعة البشرية تحترق إلى الابد بنار جهنمية » .

وهذا يشبه قول المستر كلد في كتابه تم تت تت Tom Tit Tot «انك إذا أزلت الغشاء الظاهرى للأنسان المتمدين لوجدت فى الغشاء الباطنى الأنسان المتوحش » .

وما أحسن قول اللورد بيرون فى هذا الصدد :

« نعم إنا بنى هو ابنى وهو منسوب إلى، ولكنى أرى أجداده الماضين غير البشرة ينازعوننى فى هذا الملك العزيز لدى، فانهم يشوهون طهارة نفسه، ويكدرون صفاء روحه بما رسب فى أعماقها من نزعات شريرة مجهولة انتقلت اليه بالوراثة »

ولا نذهب بك بعيداً فان فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ما للوراثة من منزلة، فقد قال الله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام « رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »

وقال تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى » وقال أيضاً فى شأن من ضعفت نفوسهم لدرجة أنه لاينفع فيهم الوعظ والارشاد « إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء».

وسنتاح لى فرصة فيما بعد للكلام على حديثين شريفين متعلقين بالوراثة هما قوله (ص) (تخيروا لنطفكم فأن العرق دساس) وقوله (إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن يارسول الله؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء)

وسنتناول البحث فى تعليل الوراثة و فى قوانينها وفي الفرق بين الصفات المكتسبة والصفات الوراثية في عدد آخر ان شاء الله تعالى .

عامر عبد القادر